الشاعر السامي

رثاء الشاعر المطبوع الدكتور احمد زكي ابو شادي لامام المجددين خليل مطران بك ألقيت في حفلة تأبينه بنيويورك يوم ١٠ أغسطس ١٩٤٩

إلهةَ الشعر ! عادَ الشاعرُ السامي ... إلى عوالمَ لم تُحْسَرْ بأجرامِ
إلى عوالمَ غنّاها وأسكرَها ... كأنّ أسراءها أسداءُ أنغامِ
إلى نُهىً لم تُكيَّفْ في منازلها ... ولم تُحدَّدْ بأنفاسٍ وأجسامِ
إلى مَنابعَ للإلهامِ صافيةٍ ... فاضتْ على الشمسِ والدنيا بأقسامِ
الأنبياءُ الى عَلياتِها انتسبوا ... والشاعريةُ في وحْيٍ وإلهامِ
الى تَباركَ ، فاستعلتْ كواكبُه ... ونحن في وَهْدةٍ هانتْ وإظلامِ
تدورُ لا مُسْلِمٍ يُشْلي مسارَها ... ونحن ما بين إسراجٍ وإلجامِ
وتبعثُ الشِّعرَ في خَفْقِ أشعتِها ... جَمَّ الفصاحةِ إنْ يُوصفْ بإبهامِ

* * *

إلهةَ الشعرا... عادَ الشاعرُ السامي ... إلى عوالمَ لم تُحْسَرْ بأجرامِ

لم ينزع الموتُ إكليلاً خصصتَ به ذاكَ الجبينَ ، ولم يَظفرْ بإغمامِ
وإنْ يكنْ قد أثارَ الهولَ في لُجَجٍ وبَعثرَ الزُّهرَ من بالٍ ومن دامِ
أسرى به في بُروجٍ لا كواكبُها تدري مداها ، ولا أربابُ أحلامِ
وخلَّفَ الفنَّ مكبوتاً على وجلٍ ألمْ يُروِّعْ بفقد الكوكب (الرامي) ؟
طارَ النَّسيمُ ، وبثَّ الطيرُ روعتَها وهو الجريحُ بأحزاني وآلامي
ألقى عليها الأسى ثُكلاً ومسغبةً سُدَّاً ذُخرَ آمالي وأحلامي
زادَ الهجيرَ لهيباً قُربُ حُرقتِنا . أليس حُرقتُنا أنفاسَ أيتامِ ؟
كأنما لم يَمُتْ قبلاً بعلَّتِهِ الفاتحونَ لدولاتٍ وأنهامِ
كأنما عيشُه حامٍ لتفكيرِهمُ والفكرُ ليس له كالفكرِ من حامِ
ما أفدحَ الخطبَ للعاني ممانعموا فكلُّ جُرحٍ حديدٍ غيرُ مُلتامِ
وما أشقَّ المآسي للشعوبِ متى تُدوولتْ بين إحياءٍ وإعدامِ !

* * *

هل يعلمُ الناسُ أيَّ الناسِ قد فقدوا أم لا يزالون في نومٍ وأوهامِ ؟
وهل بكت (ردى) والنيلُ واضطربا (كالأرزِ) من نوحِ أعلامٍ وأعلامِ ؟
أصالةٌ من جلالٍ ليس يرفعُه عالٍ من المدحِ أو دانٍ من الذامِ
مَن سايرَ النهضةَ الكبرى وهذَّبها بالفنِّ والرأيِ أعداماً بأعوامِ ؟
وما تردَّدَ في تكييفِ مبدئهِ ولا تذبذبَ في نقضٍ وإبرامِ
ولا تلعثمَ يوماً في رسالتهِ ولا تعثَّرَ في تحطيمِ أصنامِ

كأنما رُشدةُ الشَّمْسامُ في عَرَقٍ ... وشَعْرُهُ بُرْدُ فأفاه وتَمْتامِ

أجْرَتْ شعابَتُه الأحرارَ عن خدعٍ ... في عالمٍ زاخرٍ بالسُّوءِ لوَّامِ

وفاضَ شُؤْبُوبُ ريٍّ لمن عشقوا ... أنفاسَ (طيبةَ) أو ألحاظَ آرامِ

وأشْرفتْ (حلبٌ) من خرائبها ... عرائسَ المجدِ في (لُبنانَ) و(الشامِ)

ألبستها حُلَلاً ما نالَ مُشْرِقها ... أدراسُ (كسرى) ولا أفراحُ (بهرامِ)

ما (البحتريُّ) من الإيوانِ موقفُه ... وأنتَ في (حلبٍ) العابدُ السامي ؟

مَنازلٌ لك لم يَنزلْ بباحتِها ... إلاَّ النبوغُ ، فما هانتْ لأقوامِ

شعرٌ تَقرَّبه الأرواحُ صافيةً ... وتستقلُّ به ، لا نظمُ نظَّامِ

وشاعرٌ لم يُمهِّدْ قبلَه سدَفٌ ... مثلَ (المسيحِ) أتى من بعدِ إظلامِ

جمُّ المروءةِ ، وافي الخُلقِ ، ذمَّتُه ... ليستْ مطيةَ أحبابٍ وأخصامِ

يغدو إليه ذوو الحاجاتِ في لهفٍ ... ويَفتتِرْن وكلُّ جِدٍّ مبسامِ

وما تعاظمَ يوماً في تفوُّقه ... بل في تواضعِه آياتُ إعظامِ

كانت زمامتُه رُكناً يلاذُ به ... دونَ ادِّعاءِ الأحزابِ وأحزامِ

كالنُّورِ ليس لأرضٍ أن تَخصَّ به ... ولن يُقاسَ بأبعادٍ وأرقامِ

قد ضنَّ بالفنِّ إلاَّ للبصيرِ به ... كالكنزِ خبَّأ في حِرزٍ بأحتامِ

وصانَ تفكيرَه عن عرضٍ مبتذَلٍ ... كأنما هو حِصنٌ بين آطامِ

والفكرُ كالدِّينِ سرٌّ في قداستِه ... ملءُ العصورِ بآياتٍ وآرامِ (١)

لا كالخرائبِ والأطلالِ يسكنُها ... ضبُعُ الفضاءِ وثعلبُ الآرامِ

(١) الآرام : النصب التي يستهدى بها

ما عزَّزتْ أمةٌ أودتْ بعزَّته ولا اغتدتْ دونه في عدِّ آنامِ
إذا تهاونَ شعبٌ في كرامته عزَّ الأديم عليه عند أدَّامِ
وإنْ أُصيبَ الى الآسي يعالجهُ لم يرأمِ الجرحُ أو يُستَفَدْ بإرآمِ (١)
ما عاربتْ أمةٌ أخيارها ونجت أو أودعتْ أمرها أوهامَ رجَّامِ
هذا هو الخالدُ الموهوبُ أرفعه عن أن يشيرَ اليه أيُّ إبهامِ!

***

قنعتُ بالحظِّ في النجوى ، ومرتقبي تُسعِدني هنالكَ في عودي وإكرامي
يا من أُصاخ له قلبي فهذَّبني طفلاً وكهلاً ، وأحيا كلَّ أيامي
يا مَنْ سكنتُ اليه العمرَ ملتجأً ضافي العزاء ، فلم أعبأ بأخصامي
صحبته في خيالاتي ، وفي مُثُلي وفي حياتي ، وفي سعيي وإقدامي
ولم يزلْ ... ما لهذا الموت يعصفُ بي كما يعثرُ تأويلي وأحكامي ؟
وما لبرهةِ عامٍ كنتُ أرقبها حالتْ أبوداً وردَّتني لإحرامي ؟
أوَّل به ساعةً تكبيسَ أرؤسنا حزناً عليه ، وتكبيسَ لأعلامِ
لا أذنَ تخشعَ للطاغوتِ صاغرةً أو أن تطأطئَ في بؤسٍ وإعدامِ
لئن تجردَ عن ألقابِ مملكةٍ زانتْ جباناً وما كانت لمقدامِ
فالذئبُ يمرحُ في ثوبِ لبيدَه وما يُبدِّلُ عُنْماً ثوبُ ضرغامِ!

***

(١) الإرآم : معالجة الجرح .

لم يبقَ لي من عزاء غيرُ ما وهبتْ ... لِمثالكَ للخلدِ من آياتِ رسّامِ
ومن مزاميرَ جنّتْ في ترنّمها ... وفي تـلـمّـلـهـا عن أيِّ إدغامِ
ومن تسابيحَ سطرانٍ أردّدُها ... كأنّما هي من أركان إسلامي
ومن أغاريدَ للعشّاقِ أرشدُها ... راحَ الشبابِ فأنسى جدبَ أيامي
ما الراحُ في الخيلِ موعوداً بها أدبي ... أرضى بجاماتها عن هذه الجامِ
ومن أهازيجَ في معنىً وفي صورٍ ... هي (الطبيعة) في روحي وإلهامي
ومن عظاتٍ وأمثالٍ وفلسفةٍ ... جاءتْ أثاجيلَ فوق المدحِ والقامِ
ومن تهاويزَ للتاريخ تسردها ... تلامحُ الدهرِ أحقاباً بأيامِ
ومن صنائعَ للمعروفِ سابغةٍ ... ساوتْ بِرَّ المخدومِ وخدّامِ
ومن أحاديثَ مجُّ الشهدَ مُبدعها ... وإن توارتْ بأزهارٍ وأكمامِ
ثمّ عن عبقريِّ الفنِّ معجزةً ... والفنُّ كالحبِّ يحيا جدَّ عمّامِ
ولا أنيسَ سوى الذكرى لصحبتنا ... وكم تثورُ على يأسي وإحجامي!

***

رحلتَ في زمنٍ عزَّ الحكيمُ به ... والسائسُ الحرُّ بلّهَ الشاعرِ السامي
عن أمةٍ حظُّها الذكرى بلا خطرٍ ... فما تثورُ على أسواطِ ظلامِ
يخشى أفاضلُها الأوغادَ إن سمحوا ... ويركنون لأغمارٍ وأرغامِ
ويسخطون على مثلي ليقظتهِ ... إذ يمدحون، ويبكي الشاعرَ الذمّي!
لا يستقرُّون من روعٍ ومن قلقٍ ... ولا يُلبّونَ حتى عزمَ همّامِ

إذا أردنا لها استقلالها نفرتْ وما كرامةُ ذي عَوزٍ لقوّامِ؟
كأنما نسيتْ تاريخَ عزّتها ولم تُسطّرْ بأهرامٍ وأهرامِ!
قالوا: قطيع من الأغنامِ يُشبهها يا ليتها كقطيعٍ بين أغنامِ!
يصطادُ أرزاقها من لا أكيّفهمْ وتستباحُ ركوبًا عند إجرامِ
ولا يقوّمها نصحٌ، ولا عبرٌ ولا سدادٌ، وتهوى لهوَ هدّامِ
كم خودعت وصروفُ الدهر ضاحكةٌ تخلّطتْ بين أحبابٍ وأخصامِ
ما بارمُ الجبلِ في أعوادِ مَشنقةٍ كرائع لبنودِ النصر بوّامِ
فأثخنتها جراحاتٌ بلا عددٍ وأسلمتها لزلاّتٍ وأسقامِ
وما ينال وفيٌّ حين يرشدُها إلاّ العقابَ وإلاّ وطءَ أقدامِ
الهزلُ ما زالَ بين أسمى شعائرها والجهل معبودها في ملكه النامي
أحرارها غرباءٌ لا تميّزهم في حين تعنو لأوشابٍ وأنجامِ
لم تتّعظْ وصروفُ الدهر تلطمها ولم تزلْ رهنَ أتعابٍ وآلامِ
وتقتلُ الوقتَ إسفافًا ومَنقصةً وثأرُها عند بطريقٍ وحامامِ
ولم أزلْ وأنا الساعي بخدمتها شبيهها في ضلالاتي وإيهامي
أحنو عليها وإن جارتْ على أدبي وعاقتني على برّي وإنعامي
وطاردتني إلى منفايَ جانيةً وعدّدتْ سَقطَ آثاري كأتامِ!

***

مَن لي بقربكَ حيًّا خالدًا بِمَةً عنّي، وعارضَ وجدانٍ وأقلامِ
يؤرّخُ الأدبَ العالي بسيرتهِ وباسمهِ يهتفُ الوافي بأقوامِ؟

ليبكِ من صفوة الأحرار من عرفوا ... من أنت واغترفوا من بحرك الطامي
ومن أبوا أن يُعدُّوا في مجتمعهم ... بين المطالين ، لو قيسوا بمستام
ومن يُفدُّون أوطاناً نفخت بهم ... روحَ الإباء فلم تُذعن لحوّام
إن كانت اليومَ نهباً بعد تضحية ... فلن تُسام دواماً سومَ أنعام

* * *

عسى الرياض التي ناجيتها شغفاً ... تبوحُ بالوجْي للساعي والظامي
عسى الرياحَ التي شاقتك ثائرةً ... تلفُّ عنّي أغلالي وإرغامي
عسى الهديرَ على الأمواج ينفحنا ... بلحنك الحُرّ لم يُقهرْ بإعجام
عسى تراتيمَ هذا الطلّ تمنحنا ... فرائداً منكَ في شُؤبوبه الهامي
عسى الماء الذي غنّيته صُوراً ... من الجمال يُغذّي حُلْوَ أنغامي
عسى الجداولَ في أبهى وداعتها ... تسيلُ منك حناناً حولَ آكامِ
عسى المروج وراعي النحل يلثمها ... ترفُّ بالشهد عطفاً بعد إجهامِ
عسى (الطبيعة) في أسنى مفاتنها ... تجودُ لي بسناه منكَ بسّامِ
أنّى تأمّلتُ في حُسْنٍ أهيمُ به ... رأيتُ لُطفكَ في ذهني وتهيامي
في نشقة العطر ، أو في النور مختلجاً ... في ثورة البحر ، أو في روْع آجامِ
وفي مشاهدَ لا تحصى دقائقها ... أنتَ وغنّيتَ عن مزمار غنّامِ
ورنحت كلَّ عُنْبٍ في تصرّفهِ ... كأننا أهلُ أشواقٍ وأرحامِ
أرْجي رثائي سلاةً أنت مُلهمُها ... وإنْ تكنْ من حنايا قلبيَ الدامي!

احمد زكي أبو شادي